تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال D : { وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين } وقال تبارك وتعالى : { وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد } وقال جل وعلا ها هنا : { تنزيل الكتاب من ا العزيز } أي المنيع الجناب { الحكيم } أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره { إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد ا مخلصا له الدين } أي فاعبد ا وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى : { ألا الدين الخالص } أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل وحده لا شريك له .

وقال قتادة في قوله تبارك وتعالى : { ألا الدين الخالص } شهادة أن لا إله إلا ا ثم أخبر D عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون { ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى ا زلفى } أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند ا تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد : { إلا ليقربونا إلى ا زلفى } أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات ا وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة وحده لا شريك له وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن ا فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا ا واجتنبوا الطاغوت } { وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون } وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه { فلا تضربوا الأمثال } تعالى ا عن ذلك علوا كبيرا .

وقوله D : { إن ا يحكم بينهم } أي يوم القيامة { في ما هم فيه يختلفون } أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل بعمله { ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء

إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون } وقوله D : { إن ا لا يهدي من هو كاذب كفار } أي لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على ا تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى فقال تبارك وتعالى : { لو أراد ا أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء } أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال D : { لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين } { قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين } كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم .

وقوله تعالى : { سبحانه هو ا الواحد القهار } أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا